من مسرات الحياة

للأستاذ عبد الرحمن شكرى

قال ابن خفاجة الأندلسى الشاعر :

وشأن مثلى أن يُرَى خالياً ينفسه يبحث عن نفسه

وكنت كلما قرأت هذا البيت أعجب كيف لم ينظم قائله شعراً كثيراً فى بحث ميول النفس وأحاسيسها وتعليلها وتحليلها ، وقد ذكر فى بيته هذا أن من شأنه أن يخلو بنفسه يبحث عن نفسه . ومن كان هذا شأنه فحَسْبُ النفس الانسانية على اختلاف تربتها ، وهذا عمل العمر وأكثر من العمر ؛ وهو أيضاً لذة متجددة ، وإن أدى البحث إلى مايؤدى اليه بحث قاع الجب أو قاع البحر وما فيه من در ولؤلؤ ومرجان وغابات بحرية وأعشاب وأحياء تقتتل ويفنى بعضها فى بعض ووحوش بحرية غريبة مجهولة ، وجيف ورمم ، وكنوز ثمينة فى بقايا السفن الغائرة ؛ فهكذا قاع النفس أيضاً لدى من يسبر غورها ويغوص فى أعماقها . وسطح النفس أيضاً مثل سطح البحر ، لج وخرير ، وشمس تتلألأ أشعتها ، ونسيم عليل ، ومنظر بهيج هادئ ، أو عواصف وأعاصير ، ومرأى رائع جليل . وإذا كانت بعض مظاهر النفس تبعث الرهبة ، فان بعض بواطنها أدعى إلى الرهبة ، ولكن من الرهبة ما يستصحب المسرة ، كالرهبة التى يحسها المرء وهو يستطلع الأمر الغريب الرائع المخوف المجهول ؛ ومن أجل ما تستصحب من المسرة نشأ حب الاستطلاع لما يستدعى المخاطرة من مستطلعه

ولعل ابن خفاجة فى بحثه النفس كان ينظر اليها نظرة المستريح فى ظل الشجرة يفكر فيما حوله وكأنه لا يفكر ، فان فى مثل حالة هذا المستريح تفكيرا كلا تفكير ، وبحثاً كلا بحث ، فهو تفكير يقنع فيه المرفه نفسه بالنظر إلى المرئيات وألوانها وأجزائها من غير أن يعنى نفسه بالبحث عن سرها خشية أن تضيع لذة الراحة والدعة ؛ فشأنه شأن المسحور لا حراك له ، وفكره أيضاً لا حراك له ، ويخيل اليه فى مثل هذه الحال كأن الدهر قد أوقف دورته واستراح ، وكأنما يخشى أن يفك عنه الحراك سحر التأمل ولذته المطلقة التى لا تتقيد بتقصى الأسرار والمسببات ، ولا هى مثل لذة المُخَاطر الذى يرى فى مشقة استطلاع الغريب المخوف مسرة كما أوضحنا

على أن من اليسور أن ندرك ابن خفاجة فى حالة أخرى من حالات بحث النفس ، وهى الحالة التى يغوص المفكر على العويص الغائر من أسرارها ، ويحس لذة فى غوصه تملأ جوانب نفسه حتى تشغله عن لذة التعبير عما يراه فى بحثه تعبيرا فنياً ، فانى لا أحسب ابن خفاجة رأى أن تتبع حركات النفس وخطراتها وأحاسيسها فى شعره غير لائق بشعره إذ أى شئ ألصق بالقريض من النفس وأحوالها وميولها وخطراتها ، فالشعر هو لغة النفس وموسيقاها ، ومقر كنوزها وحكمتها وأسرارها

ولكن للبحث فى النفس مسرات مختلفة ، قد تفترق وقد يتصل بعضها وينال فى وقت واحد ، فمسرة فيما يجلبه التعبير الفنى عن أحاسيس النفس من ارتياح الفنان الصانع فى صنعه ، ومسرة أخرى فيما تجلبه مشاهدة أطوار النفس والتأمل فى أحوالها من الارتياح كارتياح مشاهد القصة التمثيلية فى تتبع روعة فن القصة كما يبرزه الممثل

وهذا الارتياح غير ارتياح المسحور المأخوذ بما يراه من المنظر الطبيعى أو الصورة الفنية النادرة ، وارتياح المسحور هذا هو أيضاً مسرة أخرى فى التأمل فى النفس البشرية

ولكل مسرة من هذه المسرات الثلاث قيمة فى الحياة ، وكل منها تعين المرء على تحمل متاعب الحياة وآلامها ، بل إنها لتعين اليائس بما فيها من لذة فى البحث والتقصى على تحمل ما يحس من يأس من النفس البشرية إذا لم يستطع غير اليأس منها . وكل إنسان له نصيب من هذه المسرات الثلاث ، فكل فنان ، وكل إنسان يعبر عما يراه فى أعماق النفس تعبيراً فنياً ، إما فى ثنايا ما يسلى به نفسه فى خلوته من الأغانى والأناشيد ، وإما فيما يفوه به من الأمثال العامية أو غير العامية ، وإما فى آهاته وأناته وأمانيه ، وإما فى ثنايا قصصه ونكاته وفكاهاته ، وفى مجالسه ومباذله ، وفيما يقول فى سخطه وحزنه وسروره ، أو فى نثره وشعره إن كان ناثراً أو شاعراً ، أو فى أدوات الفنون الأخرى من نحت أو تصوير أو موسيقى

وكما أن كل إنسان ينال نصيباً من لذة الفنان المعبر عن النفس تعبيراً فنياً ، فكل إنسان ينال أيضاً نصيباً من مسرة المشاهد

لقصة الحياة والنفس التي تمثل أمامه ، وكل نفس تحاول أن تحول كل ما يمر بها من الحوادث الى قصة وفن وإن لم يفطن أكثر الناس الى هذه المحاولة فى أنفسهم . وكلما اضطر الانسان الى الخروج عن نشوة التأمل المشاهد لفن قصة الحياة والنزول الى ميدان الألم المحض والأحزان ، أدى واجبه من ألم الحياة وأحزانها مما لا مفر منه ، ورجع بأسرع ما يستطيع الى موقف المعبر عن الحياة والنفس ، أو الى موقف المشاهد لقصتها ، حتى إنه ليحول أو يحاول أن يحول آلامه وأحزانه الى قصة وفن وإن لم يشعر بتلك المحاولة من نفسه ، لأنها فى كثير من الأحوال محاولة طبيعية لا نعمد فيها ولا تصنع ، وإن كانت أحياناً تستلزم عملاً ظاهراً يلفت المرء الى مجراها من نفسه كما يكون شأنها عند الفنانين

وإذا لم يستطع المرء أن يسرع فى التنقل من موقف المؤدى واجبه المفروض من آلام الحياة وأحزانها الى مواقفه الأخرى التي ذكرت حاول أن يجمع بين الأمرين فى وقت واحد بأن يقف من آلامه التي يعانيها موقف الممثل من آلام الشخص الذى يمثله فى القصة ، فيجمع الانسان وقتئذ فى نفسه نفسين ، كما يجمع الممثل بين نفسه ونفس من يمثل ، سواء أكان هاملت أو الملك لير أو عطيل الخ

وترى المرء وهو فى هذه الحال وفى دموع حزنه معنى آخر مع ما فيها من معنى الحزن والألم

وإذا لم تستطع النفس أن تقف موقف الممثل من آلامها وشجونها التجأت الى موقف المسحور المأخوذ بصور الحياة ومناظر النفس سواء أكانت بهجة أو غير بهجة ، وقل إنها تسحر بها فى بعض الحالات كما تسحر بمناظر الجلال والروعة من مناظر الطبيعة الهائلة . وهذا أيضاً تحول من النفس والتجاء طبيعى لا تعمد فيه فهو قلما يحس ، وكلما كان نصيب المرء أوفر من ملكات التحول والالتجاء ، أو قل التهرب والنجاة من حوادث الحياة ، كانت سيطرته على آلام الحياة أعظم ، لأن هذا التحول إنما هو وسيلة من وسائل مكافحة آلام الحياة لا يحتاج المرء اليها إلا بعد الوسائل الأخرى

ومن المشاهد أن النفوس عند وقوفها موقف الممثل من آلامها وحوادث أيامها تختلف فى منحاها ، فنفوس يكون موقفها أشبه بموقف ممثل الجد ، ونفوس موقفها أشبه بموقف ممثل الهزل ، والأولى قلما يفطن الناس إلى موقفها التمثيلي ، والثانية قد يفطن الناس إلى موقفها التمثيلي لبعد ما بين حقيقة حالها وهزلها . ولعل فطنة الناس إلى موقفها التمثيلي تكون فى الحالتين بمقدار قلة اتقانها لدورها أكثر مما يكون ميل موقفها الى الجد أو الهزل ؛ والمرء فى هذا الموقف النفسانى التمثيلي هو باحث متفهم لدوره دارس له كما يتفهم الممثل دوره ويدرسه حتى ولو كان ممن يجيدون التمثيل بالسليقة من غير طول عناء فى التفهم والدرس ؛ ومسرته إذن متصلة بمسرات البحث فى النفس والحياة

ولعل قائلاً يقول إن بحث النفس بحث معاد مملول يجلب السأم ، وإن النفس كالتاريخ الذى يعيد نفسه ؛ لكن النفس إذا أعادت تاريخاً من تواريخها لم تعده بالنص ، وقد يأتى التاريخ مع الأسباب والسببات القديمة بحوادث جديدة تستدعى التأمل وربط السببات بالأسباب ، وهذا ليس بالأمر الهين ولا هو بالأمر المعاد المملول ، ثم إن تحت ما هو معاد مملول من أطوار النفس وأسبابها أسباباً أخرى لا يصل إليها التقصى ، وأعماقاً يعجز الفائص عن سبر غورها وفيها مجال واسع لحب الاستطلاع الغريب حتى يأتى الموت فيسدل ستاره على لعب الحياة المقدس إلا إذا مل المرء البحث من اليأس والعجز عن بلوغ غور النفس لا من العرفان

والانسان فى رحلة الحياة كالمسافر الجواب للأقطار ؛ وترى بين ذوى الأسفار من يتعجب من كل أمر ، ومن يضحك من كل شيء ؛ ومنهم من يتأفف من كل أمر ، ومن يسخر من كل شيء ؛ ومنهم من يتحمل أشد مشقة من شغفه باستطلاع الغريب أثناء أسفاره . والناس أيضاً فى رحلة الحياة الدنيا يختلفون فى أهوائهم ؛ ومنهم من يتحمل أيضاً أشد مشقة وأمض ألم من شغفه باستطلاع الغريب مما تأتى به الأيام والليالى أو ما يراه فى بحث النفوس البشرية . ومن ذوى الأسفار فى أقطار الأرض من يحكم على قوم بحالة واحدة رآها فى أحدهم ، شأنه شأن الانسان فى رحلة الحياة الدنيا يحكم على النفوس بحالة واحدة يحولها إلى قاعدة ونظرية عامة . وذوو الأسفار فى الأقطار كالانسان فى رحلة الحياة قد يتعجب ويستغرب الطبيعى المألوف من عادات الناس أو أحوال نفوسهم وأخلاقهم لأن الانسان ذو خيال يتوقع به أن يرى الناس على ما يود من أخلاقهم وعاداتهم وعلى ما يسره ويرضيه وينفعه منها ،